بيير كورنى Pierre Corneille

للدكتور حسن صادق

حياته وعبقريته ورواياته

تتحدث فى هذا المقال عن عبقرية شعت فى معاصريها الحرارة والنور ، عن شعلة وهاجة فيها جمال وانسجام ، وفى جوهر هادى وسلام ، عن مدرسة عالية تتعلم القلوب فيها السمو والشجاعة ، وتتهيأ النفوس فيها للعفة والنبل والصفاء ، عن مدرسة علمت الفرنسيين نفاسة الارادة وبطولة الواجب وجمال التضحية . وسنجعل موضوع المقالات التالية عن عظماء الكتاب الفرنسيين فى القرن السابع عشر وهم : بسكال ولاروشفوكو ولافونتين وموليير وراسين وبوسويه وفنلون ولابروبير وسان سيمون ومدام دى سفنييه

***

إذا ولد ابن ملك ، دقت النواقيس وأطلقت المدافع إيذانا بمولده ، وفرض على الشعب أن يبتهج إن كان شقيا ، أو يبعث الفرح فى نفسه إن كان مجدودا سعيدا . وإذا ولد عبقرى ، جهل الناس أمره ولم يعرف حقيقته إلا الله الذى يسم جبينه بطابع الهى ويعين مهمته العالية بين البشر . وبعد أن تكشف العبقرية عن نفسها ويسود مجدها ، يبحث الناس فى ظروف مولدها وفى حوادث شبابها عن الامارات العظيمة التى تدل على مستقبلها . وكذلك ولد بيير كورنى فى ٦ يونيو عام ١٦٠٦ بمدينة روان . ولم يسطع فى ذلك اليوم نجم فى السماء جديد أو يحدث على سطح الغبراء حادث خارق يعلن الى الناس مجىء رجل عظيم

أحبه والداه حبا شديدا ، ورياه على التقوى والفضائل . ولم يجدا فيه مايدلهما على أن اسمه سيكون يوما فى شعلة المجد الفرنسى . ولما بلغ أشده أدخله أبوه مدرسة يديرها الجزويت فتلقى فيها تربية قوية صلبة وتعليما متينا . ولم ينس قط لهذه المدرسة الأثر الجميل الذى خلفته فى نفسه الغضة . ثم أراد له أهله أن يكون من رجال القانون فكان ، إرضاء لهم دون أن يشعر بميل إلى ماأصاروه إليه

نال إجازة الحقوق فى ١٨ يونيو عام ١٦٢٤ وترافع أمام القضاء ، ولكنه لم يصب غير الفشل الممض لأنه كان خجولا يشعر فى حضرة الناس با كتئاب باطنى يغمز عليه الحيرة والاضطراب ، ويسلط على لسانه الحبسة والحصر . وفجأة حدثت مصادفة سعيدة أظهرت عبقرية هذا المدره الصغير . كان له صديق عزيز عليه يحب فتاة ، وقد طلب منه هذا الصديق ان يصحبه فى زيارته لها فأجاب سؤله . ولما تكررت هذه الزيارة أدرك كورنى أن الفتاة أخذت ترنو إليه دون صديقه ، فكف عن زيارته لها لأنه بطبعه وفى كريم . هذا الحادث دفعه الى كتابة قصة مسرحية فكاهية سماها (ميليت) مستمدا قواعد الفن من نفسه وذوقه ، ثم سافر إلى باريس وفى جيبه فصول القصة الخمسة ، ولم يجرؤ على تقديمها لممثلى « بيت بورجونى » المهرة النابهين ، وهو المسرح الوحيد الذى كان موجودا فى ذلك العهد . فقدمها فى تواضع إلى ممثلين مغمورين فقراء ، كانوا يحاولون تكوين فرقة وإنشاء مسرح صغير فى شارع « بتى بوربون »

مثلت هذه القصة فى عام ١٦٢٩ ودرت على المسرح الصغير رزقا كبيرا . ولكن الجمهور الذى اعتاد رؤية القصص التمثيلية المقتبسة أو المنقولة عن « لوب دى فيجا » الاسبانى وغيره والزاخرة بالدسائس والعقد ، وجد قصة (ميليت) سهلة بسيطة طبيعية ، ولم ير فى مؤلفها شاعراً كبيرا

ثم وضع كورنى فى عام ١٦٣٢ قصة فكاهية أخرى سماها (كليتاندر) وقال عنها بعد وضعها إن كل ماهو محتمل فيها الأسلوب ليس غير .

بعد هذه القصة يئس من الحصول على نجاح يرضيه فى الكوميديا

آب الربيع

آب الربيع وهذه الآثارُ — فى كل واد فضة ونضارُ
بثّت لمقدمه الخمائل والربى — وتمايلت فى وشيها الأزهار
والياسمينُ نقيّةٌ بسماتُه — ومن البنفسج نافح معطار
والورد فيّاض الخدود نضارة — ترنو اليه كواعبٌ فتغار
والطير تصدح فى الغصون يديرها — فى كل دور بلبلٌ هدّار
آب الربيع .. فهل يؤوب أحبةٌ
صدّوا عن القلب الحزين وجاروا
لما تجنوا قلتُ صدّ ملاحة — ولدى المتيّم تُطلب الأعذار

حسين شوقى

وشعر فى الوقت نفسه بيقظة العبقرية التراجيدية فى نفسه ، فاستعار من (سنيكا) الحكيم الرومانى موضوع قصة سماها (ميديه) وأخرجها فى عام ١٦٣٥ ، فأصابت بعض النجاح ولفتت نظر ريشليه الوزير الفرنسى المعروف ، وكان هذا الوزير يتعشق المسرح والتأليف المسرحى وإليه تنسب قصص أربع غيبت كلها فى تضاعيف النسيان . ويقال إنه لم يكتب هذه القصص وإنما كان يضع خططها ويشرف على كتابتها

وبهذه المناسبة نذكر أن مجد ريشليه الأدبى هو فى إنشاء مجمع العلماء (الأكاديمى فرانسيز) : فى عام ١٦٢٩ اتفق جماعة من الأدباء على أن يجتمعوا مرة فى الاسبوع عند أحـــدهم للبحث والمناقشة فى الموضوعات الأدبية . هذه النواة المكونة بادىء ذى بدء من تسعة أشخاص ، كبرت سريعـا إذ انضم اليها أخصاء الكردينال ريشليه . ثم اتصل خبرها بهذا الوزير فرأى فى الحال بمهارة رجل الدولة الفائدة التى تجنى من إنشاء هيئة تضم رجال الأدب ، يجيزها أمر ملكى وتكون تحت رعايته ، فيضع بذلك يده القوية على جميع العقول الكبيرة فى فرنسا كما كاد يضعها على النبلاء والعظماء . وقد تم له ما أراد وصدر الأمر الملكى فى عام ١٦٣٥

اتجه نظر ريشليه الى كورنى كما قلنا ، ورآه جديرا بالعمل معه فى تصنيف قصصه المسرحية ، فعرض عليه رغبته فى الانضمام الى « جماعة المؤلفين » وكانت مكونة من أربعة أشخاص يكتبون باسم الوزير . قبل كورنى ذلك لأنه شعر بالحاجة الى عضد قوى يعبد له الطريق ، واندمج فى هذه العصبة الصغيرة ، ولكنه كان حريصا على الاحتفاظ بكنوز عبقريته لنفسه

وفى أحد الأيام طلب اليه الوزير أن يضع الفصل الثالث لاحدى قصصه وفقا للخطة التى رسمها له فلم يوافق كورنى على هذه الخطة ، ودهش الوزير من جرأته واسترد منه شرف العمل معه ، وقال عنه : « ليس فيه روح العمل برأى غـــيره ! » أى ليس فيه روح الخضوع والذلة

نالت هذه الصدمة من نفس كورنى منالا كبيراً فعاد إلى روان ليجد بين أحضان أسرته متنفسا من ألم الفشل ، واعتزم العدول عن التأليف المسرحى وهجر الشعر . ثم قابله ذات يوم مصادفة كاتب سر قديم للملكة (مارى دى مديسيس) يسمى (شالون) فنصح له بان يدرس بامعان شديد المسرح الاسبانى ، ولفت نظره إلى موضوع (السيد) وكان قد عولج فى أغان وطنية اسبانيـة وفى قصتين من نوع التراجيدى : إحداهما (لدون جوان ديامانت) والأخرى (لجيلهم دى كاسترو)

قرأ كورنى القصتين . وخلال غرابة التركيب وضعف الأسلوب استخلص حدثا دراميا ، ومواقف رائعة ، وأفكاراً أخلاقية : استخلص من التراب تبراً نقيا ، فوضع أول قصصه الخالدة وهى (السيد) المشهورة ، أول درة فى تاج المسرح الفرنسى فى عام ١٦٣٦

وقد أثارت هذه القصة فى نفس ريشليه الغيرة والحسد ، ولكن كورنى تعزى بتصفيق الاعجاب الذى ناله من فرنسا كلها ، وبلغ من نجاح هذه القصة أن أصبح الناس يقولون : هذا جميل كالسيد . وانتشرت هذه الجملة حتى عدت من الأمثال العامة . وقد سخر (بوالو) الشاعر والناقد الفرنسى فى ذلك الوقت من حسد ريشليه فقال : « عبثا ينور وزير على الســـيد ، فكل باريس تنظر الى شيمين بعينى رودريج (شيمين بطلة القصة ورودريج بطلها ، وكان بينهما حب شديد رائع) . ولكى يطفىء ريشليه غلة حسده أوعز إلى مجمع العلماء أن يسفه القصة ، فأعلن مكرها أن موضوع القصة تافه ، وهذا مديح أفلت من فم المجمع خلسة ، لأن كورنى استطاع بعبقريته أن يجعل من الموضوع التافه قصة رائعة استدرت اعجاب الناس فى عصره واستهوت نفوس الاجيال المتعاقبة .

وقال أكثر خصوم كورنى لوما ان الجمال الذى يعجب به الناس فى القصة لا يد لكورنى فيـــه ، وانما هو (لدى كاسترو) الاسبانى . وقد نال هـذا القول من نفس كورنى أكثر ممـا نال منها رأى مجمع العلماء الذى دحضه وسحقه نجاح القصـة فى طول البلاد وعرضها . فبحث فى التاريخ القديم عن موضوع يخلق منه قصة هامة ، فعثر فى (تيت ليف) المؤرخ الرومانى المشهور على تاريخ الموقعة التى حدثت بين آل هوراس وآل كورياس . وأخرج من هذا الموضوع قصته العظيمة (هوراس) فى عام ١٦٤٠ . وفى السنة عينها أخرج قصة (سنا) أو رحمة أغسطوس التى نالت أكبر قسط من النجاح ، وفى عام ١٦٤٣ أخرج (بوليكت) و (بومبيوس) و (الكذوب) وكلها قصص خالدة أبلغته قمة المجد والعظمة . وعقب قصة (السيد) منح الملك لويس الرابع عشر والد كورنى لقب الشرف ووثائق النبل ، ثم دخل الشاعر مجمع العلماء فى عام ١٦٤٧

استمر بعد هذه القصص التى ذكرناها والتى بنت مجده على أسس متينة ، يصنف القصص التمثيلية وأخرج كثيرا منها ، ولكنها لم تبلغ الدرجة العلية التى بلغتها القصص السابقة وفى عام ١٦٥٢ أخرج

للناس قصته (برتاريت) فلم تنجح .

اشتد عليه هذا الفشل الأليم وهو الشاعر الكبير الملحوظ المنزلة فلزم الصمت سبع سنوات قضاها فى روان مع زوجه (وكان قد تزوج فى عام ١٦٤١) وأولاده الثلاثة . ثم شاءت المصادفة أن يزور (موليير) الشاعر وفرقته روان ويمثلون فيها بعض كوميدياته . ولما شاهد كورنى التمثيل انتعش فى دخيلته الحنان إلى المسرح . فعاد اليه فى عام ١٦٥٩ أمام جيل جديد من النظارة بقصته (أوديب) فقوبلت مقابلة حسنة . ثم أخرج بعدها عدة قصص ولكنها فشلت كلها . ويقال إن سبب الضعف الذى ظهر فى قصصه الأخيرة يرجع إلى إفراطه فى العمل وإجهاده القريحة والعجلة فى التأليف ، لأنه كان فى حاجة شديدة إلى المال بعد ما استنفدت تربية أولاده كل موارده المالية . ولكن الحقيقة أنه كبر ومالت قوة ذهنه إلى الاضمحلال والركود . يدل على ذلك قوله : « شعرى ذهب مع أسنانى » نعم استطاع هذا الشعر أن يستريح بعد كثير من الآثار الخالدة التى تقص على القرون غرام رودريج وبطولة هوراس ورحمة اغسطوس واستشهاد بوليكت . وفى الوقت الذى بدأ فيه نجم كورنى بالأفول ، كان نجم راسين يعلو ويسطع ويزدهى الناس إعجابا وطربا . وفى عام ١٦٧٠ عرضت هنريت أخت زوج لويس الرابع عشر على كورنى أن يضع تاريخ (برنيس) فى قصة تمثيلية . وكان راسين فى الخفاء يعالج هذا الموضوع وهى تعلم ذلك . وأخرج الشاعران القصة فى وقت واحد فنجحت قصة راسين نجاحا كبيرا وسقطت قصة كورنى سقوطا مروعا . وفى عام ١٦٨٣ باع كورنى منزله فى روان إذ استبد به العسر . وكان لويس الرابع عشر قد قرر له معاشا سنويا قدره ٢٠٠٠ دينار بعد وساطة الشاعر شابلان ذى الحظوة لدى الملك . ودفع هذا المعاش بغير انتظام ثم ألغى . وقد شعر (بوالو) بحالة كورنى فقابل الملك ورجا منه أن يدفع المعاش للشاعر المسكين بانتظام فقبل رجاءه . ومن حسن حظه أنه مات فى ليلة أول أكتوبر عام ١٦٨٤ بعد أن ذاق مرارة الفاقة فى شيخوخته ، والشقاء هو الفدية الضرورية للعبقرية .

وقد قام مجمع العلماء بنفقات دفنه ، وكان مديره إذ ذاك القسيس (دى لافو) ولا تنتهى مدة عمله إلا فى آخر أكتوبر من ذلك العام . وجرت العادة أن يؤبن مدير المجمع ، العضو الذى يموت . وكان راسين هو الذى سيعين مكان القسيس ولذلك حدثت بينهما مشادة إذ كان كلاهما يريد أن يحظى بهذا الشرف . وتمت الغلبة فى النهاية للقسيس . ثم عين (توما كورنى) عضوا فى مجمع العلماء بعد موت شقيقه ، فاهتبل راسين هذه الفرصة وأثنى أجمل الثناء على ذكرى منافسه العظيمة . وإن خطبته فى ذلك المقام لهى نخر لعبقرية الميت وكرم الحى . وسنذكر نبذة من هذه الخطبة القيمة عند الكلام عن حالة المسرح الفرنسى قبل كورنى

مكانته ومواهبه ومذهبه

كان حساد هذا الشاعر العظيم كثيرين . فلما مات لم يروا فيه غير الشاعر العبقرى الذى خلق أروع القصص ، وجاءهم بآيات فى البلاغة بينات ، ووضعوه فى مكانة أعلى من المكانة التى كان يشغلها أيام مجده . ومن الغريب أن مدينة روان لم تقم تمثالا لأشهر أبنائها إلا فى عام ١٨٣٤ !

وكان معاصروه من كبار الأدباء لا يستطيعون إنكار قوة ذهنه وعذوبة شعره ومتانة قصصه . ومنهم لابروبير وبوالو ومدام دى سفنيه . وهـــذه كانت تصيح فى كل مجلس قائلة : « ليحى صديقنا القديم كورنى ! إن كتبه آثار أستاذ لا يجارى ولا يقلد ! إنها الذوق السليم نفسه ! » . وكان هو نفسه يؤمن بعبقريته ويتحدث بها فى عزة الرجولة وصراحة كريمـــة تفضل التواضع المصطنع الذى لا يخدع أحداً ولا يخفى ما وراءه من زهو خلق . وقد بقى وفيا لخلقه المزيج من البساطة والكرم والخجل والشجاعة والوداعة والسمو ، حتى استوفى أنفاسه .

ونستطيع أن نقول إن كورنى قلب كبير ونفس جميلة . والدليل القوى على ذلك هو ما تركه لنا من الآثار الجليلة ، وكل العواطف السامية التى يجدها القارىء فى قصصه ، مصدرها قلبه ونفسه ليس غير .

كانت الأخلاق فى عصره هابطة ، والبطولة نادرة ! فلما جاء عمل على إيصال القليل من حرارة الشعلة التى تحركه الى خمود معاصريه ، فتنبهت قلوبهم وهبت تخفق على توقيع ألحانه .

يقال دائماً إن الشاعر لا يصور إلا معاصريه ، وإن كورنى استمد موضوعاته من العادات والأخلاق التى كانت تحت بصره . هذه قاعدة صحيحة بالنسبة للآخرين ، ولكنها لا تنطبق على كورنى لأنه كان يصور الناس كما يجب وكما يجب أن يكونوا ، أى كان يصورهم على طراز نفسه العالية .

ومن يقرأ كتب هذا الشاعر يجد أن الرغبة فى جعل الارادة تتغلب على كل الصعاب والعقبات من عناصر البلاغة الخاصة بكورنى ،

ويجد أن أبطاله سواء أكانوا يريدون قهر أنفسهم أم قهر غيرهم ، يبذلون جهدهم فى إقامة الدليل الذى يبرر إرادتهم وعملهم . وهم يشرحون حساسيتهم فى شعر له نغمات الناى الساحرة ، ويعبرون عن إرادتهم فى لهجة خطابية . ولذلك يلذ لهم الحوار الطويل والمنطق السليم الذى يؤرث إرادتهم الحائرة ، والبرهانات القاطعة التى تنتصر على ترددهم . وهم فوق ذلك وفى كثير من الأحايين يريدون أن تقر ضحاياهم أعمالهم وتوافق عليها . وكذلك نجد (رودريج) فى قصة السيد يريد أن يجعل صاحبته (شيمين) تؤمن بأن قتل أبيها الكونت (دى جورماس) كان واجباً عليه . ونجد فى قصة هوراس أنه أراد أن يجعل (كورياس) يؤمن بأن من واجبه قتله . وكذلك فى (سنا) تحاول (راميلى) صاحبة (سنا) أن تجعل الامبراطور (أغسطوس) يعتقد أن واجبها يأمرها بتدبير مؤامرة لاغتياله .

قلنا إن كورنى كان عيانى حضرة الناس ، ولكنه كان خطيبا بلسان أبطاله وفى كل قصة تجد أن الحوادث هى نتائج قرارات الأبطال ومشيئتهم . ففى هوراس وسنا مثلا لايحدث حدث إلا برغبة أبطال القصة ، فالامبراطور أغسطوس بعد أن عرف أن صديقه سنا يأتمر به ليقتله كان فى مقدوره إذا أراد ، أن يعاقبه بدلا من الصفح عنه ، فالارادة فى مسرح كورنى هى نابض الحركة الوحيد ، لأنه كان يعتقد أننا فى الحياة سادة حظوظنا . وهذا مايجعل لهذا المسرح قيمة خلقية فريدة ، وإن جعل الفعل الدرامى معلقا على مشيئة الأبطال ، لهو فى الحقيقة تخفيض لنصيب الظروف أى تبرئتها مما تتهما به . وليس هذا حقيقة خالصة ، ولكن كورنى أراد بذلك أن يرغب الناس عن التواكل والاستسلام ويربى فيهم الاعتماد على الأرادة

ولكى نحكم حكما صحيحا على كورنى ، يجب ان نضع نصب أعيننا دائما أنه المؤسس الحقيقى للتراجيدى الفرنسية . كثير غيره جاؤا بعده ، متزودين بدروسه ومناهجه ، فاتلوا أو بذوه ، ولكنه بقى استاذ هذا النوع . إنه هو الذى ابتكر استعطافا جديدا يقوم لاعلى الفزع والشفقة ، ولكن على الاعجاب ، الاعجاب بالمواقف ، والاعجاب بالخلق ، والاعجاب ببطولة الواجب وروعة التضحية . وهو الذى حدد شكل التراجيدى الفرنسية وجعلها « قضية أخلاقية توضع بواسطة العرض ، ثم تحصل المناقشة فيها بواسطة انقلابات الحال ثم تحل فى الختام » . وعبقريته هى التى جعلت التراجيدى تحليلا نفسيا لشهوة من الشهوات تدرج فى طريقها حتى تصل الى العنف والحدة ثم الى النتائج الأخيرة

أثر كورنى فى التراجيديا والادب

كانت التراجيديا قبل كورنى محاورات طويلة . وكان واضعوها يصورون الوالد والولد والزوج فى ظروف شخصية خاصة محدودة . ولكن كورنى صورهم بطريقة عامة أى صور المثل الأعلى للوالد والولد والزوج

قال (سانت بيف) بحق « إن كورنى هو الشاعر الجدير بأن يعاصر الفيلسوف (ديكارت) . كان الفيلسوف يبرهن على وجوده بالفكر فيقول : « إنى أفكر ، اذن أنا كائن . وكان الشاعر يبرهن بالفكر على الحساسية الحركة والحياة ، فكل شخص فى قصصه يقول إنى افكر ، إذن أنا شاعر حى »

وكل مايعاب على كورنى أنه لم يصور المرأة فى قصصه تصويرا طبعيا . وذلك لأنه لم يحب قط ، ولم يسبر غور القلب النسوى ، وكل أبطاله النساء لاتمت الى الطبيعة الا بصلة ضعيفة لأنه خلقهن من إدراكه لا من تجربته وملاحظاته

كان كل همه أن ينتج الاعجاب بالفضائل . وقد بلغ غايته بجعل الواجب يناضل الهوى ثم ينتصر عليه . أى أنه بلغ غايته بتصوير البطولة أحسن تصوير . وهذه الغاية أرغمته فى بعض الأحايين على أن يبالغ فى قوى أشخاصه ويعلو بهم فوق الضعف الانسانى ليحيلهم الى ابطال

وقد أعجب (فولتير) فى القرن الثامن عشر بكورنى إعجابا شديدا ، حتى إنه تبنى بنت أخته وزودها بمهر ثم زوجها . ونشر كتب كورنى وشرحها ، وقال فى المقدمة : « الشرح الوحيد لكتب كورنى يجب أن يكون بكتابة هذه الكلمات فى أسفل كل صحيفة : جميل . جليل . إلاهى ! »

وطبعى أن ينهض كورنى بالمسرح الفرنسى لأنه جاء فى عصر زاهر مهيأ لهذا النهوض . إن المسرح من أنفع وأنبل ما ابتكر العقل الانسانى لتهذيب العادات وصقل الخلق . لايمكن أن يصل الى كماله الا عند ماتبلغ الجماعة نفسها قمة مدنيتها . ولهذا يكون الفن الدرامى دائما فى بطء بينما يظهر الشعر الحماسى والغنائى فى طفولة الامم بقوة أكثر مما يظهر بها فى عصر نضجها . لأن شعراء الملاحم والغناء يستطيعون أن يسلموا أنفسهم الى جرأة عبقريتهم ، وبهذه

الجراءة يسبقون القرون . أما شعراء الدراما ، ومهمتهم كما نعلم تهذيب الجماهير وإشعال الحماسة فى نفوسهم ، فانهم مرغمون على أن يلائموا عبقريتهم مع عادات العصر الذى يعيشون فيه . ولذلك نرى أن الجماعة التى لم تبلغ شأوا بعيدا فى المدنية ، لا يشغل المسرح من أدبها الا مكانا ثانويا . فاذا اقتربت من نضجها ، أخذ المسرح مكانه فى الصف الاول من مدرسة الادراك . وهـذا ماحدث فى فرنسا فى القرن السابع عشر ، وماحدث فى بلاد الاغريق قبل أن يأتيهم سفوكليس وأوريبيدس وأريستوفان وإسخيلوس . فقد كان للفرنسيين جودل وبايف وهاردى قبل ان يكون لهم كورنى وموليير وراسين

والى القارىء نبذة من خطبة راسين التى استقبل بها (توما كورنى) لما صار عضوا فى مجمع العلماء تلخص رأى هذا الشاعر فى حالة المسرح الفرنسى قبل كورنى ورأيه فى كورنى نفسه : « أى اضطراب وأى شذوذ كان يسود المسرح قبل كورنى ! كان الذوق مفقودا ومعرفة الجمال المسرحى مجهولة . وكان الجهل المعيب يجمع بين المؤلفين والنظارة . وكانت جل الموضوعات تحمل سمة الهوس ، وعارية من الصدق . وكانت الألفاظ نفسها أكثر قبحا من الحوادث . وخلاصة القول ، إن قواعد الفن حتى قواعد النزاهة والآداب كانت فريسة الفتك والعدوان ، فى هذه الطفولة أو على الأرجح وسط هـذا العماء الذى كان يخيم على الشعر الدرامى فى بلادنا ، جاء كورنى . وبعد أن جاهد وناضل الذوق السقيم مزوداً بسلاح العبقرية ومعتزاً بقراءة القدامى ، أظهر على المسرح العقل تحف به أبهة اللغة وروعة البيان ، فطغى صوته على صوت منافسيه فأخفاه . ولما يئسوا من بلوغ مكانته عمدوا الى تسفيه كتبه ، وحاولوا أن ينالوا بالنقد الطائش من جدارته ، ولكنهم فشلوا وحاق بهم مكرهم السيء . السيد وسنا وهوراس ، ملأت الاسماع وهزت أوتار النفوس وترجمت إلى عدة لغات ، وستظل حية على مر الدهور فى أفواه الناس ، كورنى فن وقوة وبراعة ، وخصوبة ونبل وعظمة » .

هذا كلام راسين الذى كان ينافس سلفه ، وهو قول حق .

وعند ظهور كورنى ، كان قد مضى على الناس ما يزيد على مائة عام وهم يعالجون التفكير ويتألفون الشعر والنثر دون أن ينجحوا النجاح المرجو . وعبثاً نهبوا مؤلفات الاقدمين ومسخوها ، وعبثاً سرقوا من لوكريس وفرجيل وهوراس وسنيكا أو من الايطاليين والاسبان . وعبثا انتحل كتاب النثر لانفسهم من سيسرون وبلوطارخوس . ثم جاء كورنى وديكارت فحررا اللغة والفكر الفرنسى من ربقة الاغريق والرومان ، فهما أول من أعطى الادب الفرنسى صبغته الخاصة وطابعه القومى . فالسيد و(رسالة فى المنهج) لديكارت يعينان عهداً جديداً فى تاريخ الأدب والفكر الفرنسى . فقد كسرا أغلال اللغة وكانت أسيرة فى أطلال اللاتينية ، وأنقذا الفكر من محنته وكان يريد ذلك ولا يستطيعه . وبفضلهما وجـد فى أوربا كلها بين كل الذين يقرأون ويكتبون أداة عامة جديدة للتفاهم : هى لغة ديكارت وعلى الأخص لغة كورنى التى سادت من عام ١٦٤٨ تحرير معاهدات التحالف والصلح ، وأصبحت آخر الأمر اللغة الوحيدة تقريبا للأدب والفلسفة والعلم . وكما يفخر الرومان بأن عصر أغسطوس أنتج هوراس وفرجيل ، كذلك يفخر الفرنسيون بأن عصر لويس الرابع عشر ، أكبر ملك حكمهم ، أنتج أكبر شاعر لهم وهو كورنى

ونختم هذا المقال بكلمة نابليون الاول : « القصة التمثيلية تشعل النفس ، وتسمو بالقلب ، وتخلق دون ريب أبطالا . وإنى أجهر بأن فرنسا تدين لكورنى بجزء كبير من أعمالها الجيدة . إن القصص التمثيلية مدرسة عالية لعظماء الرجال ، ومن واجب الملوك تشجيعها ونشرها . ولو كان كورنى حيا فى زمنى لجعلته أميرا » .

وما قيمة اللقب الرسمى فى جانب اللقب الذى ناله من الشعب وهو كورنى العظيم ؟ ولماذا وهبه الشعب هذا اللقب ؟ لأنه جاءهم بقصته السيد ، وهى الحب فى أجمل أثوابه ، وبقصته سنا ، وهى السياسة فى أسمى أشكالها ، وبقصته بوليكت ، وهى الدين فى أروع مظاهره ، والحب والسياسة والدين هى « ثالوث » القلب الانسانى .

حسن صادق

مكتبة الطالب
بالحرم الجامعي
بها أنفس الكتب